الفنون والصناعات المصرية (١)

حاجة مصر الى جامعة الصناعات اليدوية

ما هي جامعة الصناعات اليدوية ؟ — ان الذين حضروا مؤتمرات المعرض الشتوي في الندوة الملكية (في انكلترا) سنة ١٩١٦ حين كان كثيرون من الجنود في فترة العطلة والراحة سعوا جواب هذا السؤال . وقد حامت افكارهم وآمالهم في ذلك المؤتمر حول فكرة « التجديد » . (وهي فكرة خلع النظامات الاجتماعية المختلفة الزائلة وتجديد نظامات ملائمة لحالة المجتمع الحديث) ولغط جمهور من الناس قائلين : « ماذا ينبغي ان نفعل بعد الحرب ؟ وكيف يجب ان نرتب شؤوننا » ، فكان قوم آخرون يجيبون « ما دمنا في حرب شعواء فليس في وسعنا ان نفكر في مسألة « التجديد » هذه بل يجب ان نحصر همنا في مهمات الحرب الآن . على ان تبهاء الامة ليسوا من رأي هذا الفريق ولا يجدون فيه الا عذراً لمن لا يريدون ان يفكروا في المستقبل مطلقاً

وكان الغرض من تلك المؤتمرات التي عقدها اهل الفنون والصناعات وحضرها لفيف من المتأدبين والموظفين وذوي الاعمال انشاء اسلوب جديد مفيد للتعليم والتربية والصناعات لانهم اصبحوا يعتقدون ان النظام الحالي لم يعد صالحاً ولا يجوز ان يستمر وان الحرب الحالية كانت نتيجته التي لا مندوحة منها . ولذلك اشتدت الحاجة الى نظام جديد يزيل مساوىء النظام الصناعي الحاضر ويخفف وطأته القبيحة وينافي وتيرته الآلية — نظام جديد يبعث الحياة في الفنون والصناعات ويجعل للمصنوعات نماذج جيدة وجميلة ومتقنة

وكان متحف برلتن الذي عقد فيه ذلك المؤتمر قد تحول حين ذاك من معرض صور وتماثيل الى معرض للمصنوعات المختلفة الحديثة يمشي فيه تلاميذ الصناعات . وجميع الذين حضروا المؤتمر كانوا مجمعين على ان الغرض الذي يرمون اليه يمكن ان ينال بوضع قواعد جديدة لتعليم الصناعات اليدوية واستنباط وسائل جديدة لترويج المصنوعات ولتقويتها على مناهضة المعامل الميكانيكية . ولا

(١) ترجمت بقلم نقولا افندي حداد من مقالة للسير اثني نسرت اولاً في الاجيشن غازت

وسيلة لبلوغ هذه الامنية الا انشاء جامعات للصناعات اليدوية

و ذ كانت هذه الجامعات تشاد على اساس اصدار المصنوعات وترويجها بالوسائل الشريفة وتجعل بجامعات في مقام المدارس العالية وتعطي مصنوعاتها المنزلة التي تستحقها بين سائر المصنوعات الاخرى فلا بد ان يكون لها مقام في حياة البلاد جديو بالاعتبار

ان هذه الجامعات تسد حاجة جوهرية في حياة البلاد — لنا ان ندعوها الحاجة الى الصناعة الجميلة المتقنة — وتتلافى قتل الصناعة الجميلة التدريجي الذي جعل يستفحل منذ طفت الاعمال الميكانيكية . لم يشعر بهذه الحاجة في انكلترا فقط بل شعر بها في اميركا وفي المانيا ايضاً حيث اخذت هذه الجامعات تتكوّن كتكوّن كل جديد

اصناف الجامعات

ولكن لماذا تقول جامعة ؟ — للجواب على هذا السؤال مزية خصوصية في مصر حيث تنعقد الآن لجنة خاصة للبحث في تأسيس جامعة جديدة في هذا القطر. فقد مرت الجامعات على ثلاثة اطوار في ثلاثة اصناف الصنف الاول جامعات القرون الوسطى. والثاني جامعات القرن التاسع عشر . والثالث الجامعات الحديثة . فمن امثلة الصنف الاول جامعات بولونيا وباريس وكمبردج وكمبردج والازهر . ومن نماذج الثاني سائر جامعات اوربا التي عاشت بالروح العلمية في القرن التاسع عشر . ومن نماذج الثالث جامعات لفربول وبانجور وليدس ومانشستر في انكلترا ومعظم الجامعات الاميركية التي نشزت عن تقاليد النهضة اللغوية الادبية — اي تقاليد اعطاء اللغات والآداب المقام الاول في التعليم . وقد يصعب التمييز بين الصنفين الاخيرين ولكن لا يستحيل

ولما اقبل العلم الحديث على الجامعات الاوربية القديمة كان في نظرها كالجواد النحاسي الذي ادخل الى مروادة . وكانت رغبة تلك الجامعات في ابقائه خارج ابوابها سليقة حقة كما يعدّ الازهر الآن محقاً في هذه الرغبة . ذلك لان هذه الهدية خطرة . اجل ان جواد المعرفة الحديثة النحاسي كهدية تقية ولكنه مليء قوة ميكانيكية . فلا يخفى ان المعرفة الحديثة وقفت على تحصيل المنافع المادية والتجارية وكسب المال فقط . واما الغرض الاسمى من العلم والغاية

الشريفة من ترقية البلاد ومن خدمة الحق لاجل الحق نفسه — كل هذه الامور اغفلت من مقصد المعرفة . اذاً ألا يكون عملة الآداب واللاهوتيون والائمة على حق من تخوفهم من جواد المعرفة النحاسي الذي اوقف لدى ابواب جامعاتهم ؟ اليس الغرض الاسمى من التعليم تهذيب الاخلاق ؟ فاذا ابتغيت الحق لذاته والصواب لعينه في البحث العلمي بقطع النظر عن النفع المادي منهُ امكنك ان تحصل على اخلاق راقية وسجايا حميدة

كان من تأثير الاندفاع في سبيل العلم التجاري ان الجامعات القديمة اصبحت مقصورة على خاصة الامة دون عامتها وضاع كل ما بقي من روح ديموقراطية القرن الثامن عشر . ترى ذلك الآن في التباين الشديد بين الجامعات والشعب في انكلترا . فلا ترى في الجامعات الا ابناء اصحاب الاعمال الذين قبضوا على ازمة القوات الميكانيكية وتولوا تنظيم العمال في الاعمال وابناء اصحاب الحرف العالية . واما خارج الجامعات فترى طبقة العامة المنظمة تحت نير المعامل . فهذه الحالة تسترجب دقة التفكير . وفي الحرب الحاضرة خير درس للذين يفكرون

غرض جامعة الصناعات اليدوية

ان فكرة جامعة الصناعات اليدوية ليست امراً مألوفاً ولا تتراءى فيها ديموقراطية الروح وليست ذات مقصد سياسي . وانما الغرض منها تعديل نزعة وتقويم غاية وهذا بعد ذات شأن خطير في مصر . ان الغرض الاساسي من مناهضة مصانع الصناعة الميكانيكية وتلافي ما ساء من استخدام القوة الميكانيكية انها فقد جاءت القوة الميكانيكية شر هادم لبناء الهيئة الاجتماعية النوعية في القرن الثامن عشر لانها قضت بان يعمل كل شيء في المعمل الميكانيكي — اي انهُ يجب ان يتقل دكان كل عامل في الموسكي فلا يبقى الناسج ينسج ولا النحاس يطرّق ولا الصائغ يحلي ولا الزجاج ينفخ ولا النجار ينشر — فلا يبقى لهؤلاء ان يشتغلوا في مصانعهم وهم يتحدثون مع صناعهم ويرشفون القهوة مع زبائنهم . اجل لقد عادت القوة الميكانيكية في مناهضة الصناعات اليدوية (كما هي الحال في اميركا الآن) الى حد ان ابسط الاعمال اليدوية واحقرها هجر الدكان وانتقل الى المعمل . فرقع الحذاء وطبخ الطعام اصبحا من وظيفة المعمل حتى ان ارضاع الطفل صارت تتولاهُ موضع صناعية . وهكذا لم يبقَ من حانوت لعمل يدوي لان جميع الاعمال تنظمت

جماعات تحت امرة القوة الميكانيكية التي انتهت ازمتها الى ايدي خاصة الناس . وبالثاني تغير اسلوب الحياة تغيراً عظيماً وفقد الانسان مهارة يده وما كان ينجم عنها من التهذيب الاجتماعي وترقية الذوق الفني . فجامعة الصناعات اليدوية وحدها تصلح هذا الخلل . وليس معنى ذلك ان القوة الميكانيكية خطأ بل ان هذه القوة الهائلة تجاوزت الحد في مناهضة العمل اليدوي ومع ذلك لا تفي بكل حاجة من حاجات الاجتماع . فهيك عن ان في الصناعة اليدوية قوة مهذبة مستنبطة تقابل القوة المهذبة في عهد النهضة الادبية والفنية في القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر

ان الفنيين الاوربيين المعاصرين ادركوا هذه الحقيقة واقروها ولهذا شرعوا ينشئون جامعات للصناعات اليدوية على سبيل التجربة في انكلترا واستريا وبافاريا والولايات المتحدة . وهناك طوائف صغيرة من حذاق العمال والعاملات الذين من رأيهم ابتداع المصنوعات الجميلة مستقلة عن السيطرة الميكانيكية . وهم يعتقدون انهُ اذا لم يكن بد من استخدام الآلات الميكانيكية فللانسان ان يتسيطر على الآلات وليس للآلات ان تتسيطر على الانسان . وكثيرون منهم معروفون وستكون اعمالهم في المستقبل خير ما تمتاز به اعمال القرن العشرين . وحاصل القول ان جامعة الصناعات اليدوية ترمي الى غرض تهذيبي جديد وهو صد تيار مساوىء القوة الميكانيكية حتى اذا نجحت في هذه المهمة كانت عاملاً قوياً في ترقية الذوق الفني وكانت ذات نهضة صناعية خطيرة الشأن وحميدة المغبة في الحياة الاجتماعية

كان مفتاح اله الفنون والصنائع عند المصريين وهو اقرب الآلهة المصرية لشكل الانسان يمثل وجهاً جميلاً ويدين حساستين وهو مقمط بقماط كقماط المومياء واذا افترضت لانامله قوة حيوية يستطيع بها ان يخلع قماطهُ ويبرز منهُ حيا . وقد اعتُقد انهُ يمنح قوة التخيل والابداع للصانع الذي اكتسب تهذيبهُ عن يد الصناعة الجائرة في يد الشرق

على ان جهاد الغرب في انشاء جامعة للصناعات اليدوية صادف صعوبة عظمى لا يصادفها الشرق في هذا السبيل . ولمصر المزية الكبرى على سائر الامصار في ابراز هذه الجامعة الى حيز الوجود . ففي الغرب جاءت جامعة الصناعات اليدوية متأخرة — جاءت بعد ان محت المعامل الميكانيكية تقاليد الصناعات اليدوية . ان

زبدة المعرفة التي اثمرها حانوت الصناعة وتوارثها ابن الصانع عن ابيه وتناقلتها الطائفة الواحدة من الاخرى وتسلسلت معها المهارة الفنية المخزونة في حياة العائلة او الجماعة كانت ولم تزل تحفة ثمينة في يد الشرق . واما الصانع الغربي فقد فقد هذه التحفة وهو الآن يحاول استردادها . انظر الى السجادة العجمية والقفطان المصري والخزانة القبطية والعود السوري تفهم معنى هذه التحفة . والاشخاص الذين يعنون بانشاء جامعة للصناعات اليدوية في الغرب سواء كانوا صناعاً او مدربين او مهندسين او منظمي اعمال يجب ان يعتمدوا بينهم التقاليد الفنية التي لا يزال الصانع المصري يحافظ عليها في صناعته . ويجب ان يقولوا هذا هو الشيء الذي نبتغيه اساساً لجامعتنا الصناعية وهذا هو العامل المناهض لاذى القوة الميكانيكية الذي نحاول ان نبث فيه روحاً . فيجب ان ينتفع منه

ترى ماذا تعمل مصر الآن لتحافظ على هذه التحفة التي لا تزال تمتلكها ؟ فلا يخفى على الذين يدرسون المسألة بل على الذين تعرض لهم مصادفة ان معروضات الموسكي الجميلة ومعروضات احياء الصناع في سائر القاهرة لم تعد مصنوعات وطنية بحتة بل اصبحت تقليداً لها من صنع المعامل الميكانيكية النمساوية والالمانية والانكليزية . فاذا طرأ في خلال ذلك على مهارة الصانع الوطني وحذقه وتقاليده وحياته الاجتماعية ؟ . الغرب يقدر ان يجيب عن هذا السؤال جواباً صادقاً ولكنه مؤلم . فاذا كانت هذه النزعة الجديدة التي نلاحظها في المصانع المصرية لا تناهض واذا كانت مهارة الشرق الفنية تنبذ ظهرياً بسبب استفحال الصناعة الميكانيكية الغربية واذا كان الشرقيون يقابلونها بتألوف قولهم « ما عليش » فلا يخفى ماذا يكون مصير المصانع المصرية البحتة . يكون مصيرها كمصير تلك المصانع الغربية التي يحاول الفنيون وارباب الاعمال الآن إحياءها ولكن بصعوبة شديدة . هذا هو غرض جامعة الصناعات وهذا هو غرض انشاء جامعة في مصر . اما وظيفة هذه الجامعة فهي ان تجمع جميع الصناعات اليدوية تحت نظام واحد وان تجعل المصانع متكافئة ومناهجها متوازية وان تبين اين يجب ان يلجأ الى العمل اليدوي وان تقرر كيف يجب ان يتسيطر على المعمل الميكانيكي حيث لا غنى عن الاعتماد عليه . وزد على ذلك انها تحمي جودة المصنوعات وقيمتها الفنية الامر الذي قصرت عنه

الصناعات الحديثة . وهكذا تستطيع الصناعات الشرقية الفاخرة ان تستعيد نفاستها كما يسترد الانه « فتاح » حياته

كيف يشرع المشروع

كيف يمكن ذلك ؟ ليس الامر صعباً وانما يبتدأ اولاً بتخيل المشروع والاقتناع بشدة الحاجة اليه وثم بالرغبة في تنفيذه . يجب ان يكون المشروع ركناً من اركان تربيتنا الاهلية والمدنية كما كان نظام النقابات في الاعصر الوسطى. فهي انكلترا اقترح ان يكون تعليم الفنون لا مركزيًا اي ان تتولاه كل ولاية لنفسها وان تتحوّل المدارس الفنية الحالية الى نقابات منتجة للمصنوعات . وقد رأى الناس بعد الاختبار ان افضل طريقة لتعليم الصناعة الجيدة هي صنع المصنوعات الجيدة . واما في اميركا فقد وهب بعض الاغنياء هبتين ماليتين عظميين الواحدة في شرقي البلاد والاخرى في وسط غربيها لانشاء جامعات للصناعة اليدوية . والامناء على هاتين الهبتين يدرسون الآن المشروع استعداداً لتنفيذه

واما في مصر فلا بد من وجود مكان لائق لجامعة الصناعات اليدوية . وما اكثر المحلات الموافقة لها في القاهرة فقد اقترح ان يبتاع لها بيت السادات وحديقتهُ الجميلة . وقيل ان بيت جمال الدين الذهبي خير موقع لها . وقد اصابت الحكومة بان ابَت بحفظ هذا الاثر النفيس . ويحسن جدًّا ان تجعل الاماكن التي هي خير نماذج للصناعات الجميلة في القرون الوسطى حتى القرن السابع عشر مدارس ومعارض للصناعات اليدوية المختلفة واندية لذويها

ومتى انشئت مراكز الصناعات اليومية او بالاحرى انديتها التي يجتمع فيها ذووها ومدارسها التي يتعلم فيها ومعارضها التي تروج فيها مصنوعاتها امكن تنشيط الصناع على التعاون في ترقية صناعاتهم وتحسينها وسن القوانين لذلك

فاذا تنظمت الصناعات الوطنية على هذا النحو ونالت من الحكومة تنشيطاً استتمت الغاية التي يرمى بها اليها . على ان هذا الامر يجب ان يكون في برنامج المستقبل وان يعطى حقهُ من العناية . واما الواجب الاول فهو تكرير فكرة الجامعة وتقرير العزم على انشائها